وجود الله بين المنهج القرآني والمسلك الفلسفي –دراسة مقارنة–

الدكتور رضوان لقصيبي

جامعة محمد الخامس كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط

مقدمة

تعتبر قضية وجود الله أوكد القضايا التي اهتم بتقريرها القرآن الكريم، حيث تنوعت أدلته في كشف عوار المنكرين لوجود الله، ورد مزاعم الملاحدة الدهريين، ودحض دعاوى أرباب مذاهب الصدفة والطبيعة، وفي الوقت نفسه فقد تعددت طرائق القرآن أيضا لإثبات وحدانيته تعالى، وما يترتب عنها من مسائل الإيمان وأصول النبوات والسمعيات.

ولقد اشتغل الفلاسفة بهاته القضية قبل مجيء الإسلام ـــ باستثناء الملحدين والمنكرين لوجوده؛ بحثا عن الله، حتى قبل أن تتأثر بالأديان السماوية، وقد دفع التأمل في هذه المسألة الفلاسفة أغلبهم إلى الاجتهاد في وضع أكثر من برهان للتدليل على وجود الله، وربما نجد عند الفيلسوف الواحد أكثر من دليل لا سيما عند فلاسفة العصور الوسطى، والفلاسفة المسلمين الذين دفعهم الدين إلى تأييده بتلك البراهين والحجج، لكن من يتأمل تلك البراهين يجدها كلها لا تخلو من ضعف الحجة؛ لأنها تعتمد على استنتاجات بشرية لا تخرج عن أطر التفكير الانساني المحدود، لذلك لجأ البعض إلى مهاجمة تلك الأدلة من أساسها بحجة أن قضية الله قضية إيمان قلبي لا تحتاج إلى براهين وأدلة منطقية.

أهمية البحث

– إبراز المنهج القرآني في إثبات وجود الله، ومدى تنوع أدلته وقوة برهانه في الدلالة عليه.

– بيان طرائق الفلاسفة في مقاربة مبحث الوجود في الجزء المتعلق بمعرفة الله، وبيان مدى اقترابهم من شاكلة الصواب والتي ليست سوى الرؤية القرآنية لمبحث المعرفة الإلهية.

– الكشف عن الاتجاهات الفلسفية التي أنكرت الوجود الإلهي كالدهريين والملاحدة وما تمخضت عنه من مفاهيم ونظريات أنتجها العقل اللاتيني كالبراجماتية والماركسية والليبرالية، وغيرها.

– رصد مسالك الفلاسفة في البحث عن الله، وكيف تدرجت العقول في إدراك الكون، وفي البحث عن قوة تسيره وتحركه.

خطة البحث:

– مقدمة.

– المبحث الأول: منهج القرآن الكريم في إثبات وجود الله.

– المبحث الثاني: مسلك الفلسفة الإسلامية في إثبات وجود الله.

– المبحث الثالث: مسلك الفلسفة الغربية في إثبات وجود الله.

– خاتمة.

المبحث الأول: منهج القرآن الكريم في إثبات وجود الله.

يقوم المنهج القرآني في إثبات وجود الله على مبدأ النظر والاعتبار؛ ولذلك نبه القرآن العظيم في آيات كثيرة كل من أنكر وجود الصانع الحكيم بأن ينظر في هذا العالم مـــن الـــسموات والأرض، مما حواه من عجائب وبدائع الصنع، يقول ابن جرير الطبري: " أو لم ينظر هؤلاء المكذبون بآيات االله، في ملك االله وسلطانه في السماوات وفي الأرض، وفيما خلق جل ثناؤه من شيء فيهما، فيتدبروا ذلك، ويعتبروا به"[1]. ويقرر الرازي أن النظر في الكون فيه أدلة كثيرة جدا على وجود الصانع الحكيم، فيقول: "واعلم أن دلائل ملكوت السماوات والأرض على وجود الصانع الحكيم القديم كثيرة"[2]، ويقول أيضا: "إن هذا الكون فيه أدلة كثيرة تدلنا عند صحيح النظر فيه على وجـــود االله _تعالى_ ولا أعظم من النظر في هذا الكون من جهة العناية به"[3].

وترجع مسالك النظر التي دعا إليها القرآن إلى نوعين، هما:

- ✓ –مسلك النظر في الأنفس، ودليله قوله تعالى: {وَفِي أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ}[4].
- ✓ مسلك النظر في الآفاق، ودليله قوله تعالى: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ}[5].

ومن خلال هذين المسلكين معا أثبت القرآن الكريم وجود الله تعالى، وذلك لتضمنهما أنواعا من الأدلة المتنوعة، وهي: دليل الحدوث، ودليل العناية ودليل الاختراع، ودليل الإتقان.

أولا: دليل الحدوث:

لقد أكد دليل الحدوث على أن الإنسان في سائر مراحل تقلبه في هيئات خلقته من نطفة ثم علقة ثم مضغة إلى أن يكتمل خلقه دليل على حدوثه، وحدوثه دليل على وجود المحدث له، إذ لا حادث إلا وله محدث، وقد بنى الأشعري هذا الدليل على مقدمتين:

الأولى: لا بد للحادث من محدث، والثانية: أن الإنسان حادث.

وقد بنى الإمام الأشعري المقدمة الأولى "لا بد للحادث من محدث" على قاعدة عدم جواز الترجيح بدون مرجح؛ ذلك أن وجود الإنسان على هيئة مخصوصة وفي زمن مخصوص، مع أنه يحتمل ضروبا كثيرة من الهيئات،

كما يجوز تقدمه في الزمان وتأخره، يدل على وجود مرجح رجح وجوده على هذه الهيئات المخصوصة دون غيرها وفي هذا الوقت بعينه دون غيره.

أما المقدمة الثانية؛ فقد استدل عليها بدليل ينبني بدوره على مقدمتين؛ إحداهما: أن كل متغير حادث؛ ذلك أن تغير أي شيء كان يقتضي مفارقته للحال التي كان عليها قبل تغيره، وقدم أي شيء كان يقتضي عدم مفارقته للحال التي هو عليها. فإذا حصل هذا الشيء دل ذلك على حدوث الهيئة التي حصلها؛ لأن هذه الهيئات لو كانت قديمة لما جاز عدمها.

وثاني المقدمات؛ أن الإنسان متغير، ذلك أنه إذا كان تغيير الهيئات يوجب حدوثها وجب أن يكون ما عليه من الأجسام قبلها موجودة، بل كانت معها محدثة. فتقلب الإنسان إذن في سائر الهيئات دليل حدوثه، وإذا ثبت أن كل متغير حادث، وأن الإنسان متغير وجب أن الإنسان حادث[6].

فإذا ثبت أن الإنسان حادث، وأن المحدث مفتقر إلى محدث، دل ذلك على وجود محدث لهذا الإنسان هو الحق سبحانه[7].

ثانيا: دليل الاختراع

يرجع مفهوم دليل الاختراع في منظور المتكلمين إلى النظر في اختراع جواهر الأشياء الموجودة، مثل اختراع الحياة في الجماد والإدراكات الحسية والعقل[8].

وينبني هذا النمط من الأدلة على أصلين موجودين بالقوة في فطر الناس، وهما:

أ – أن هذه الموجودات مخترعة: وتتقرر هذه الحقيقة من خلال النظر إلى الموجودات، سواء تعلق الأمر بحيوان أو نبات، كما قال تعالى: {يا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ}[9]، حيث نرى أجساما تحدث فيها الحياة، فنعلم قطعا أن ها هنا مُوجِداً للحياة ومنعما بها، وهو الله تبارك وتعالى. وأما السماوات فنعلم من قِبَلِ حركاتنا التي لا تفتر أنها مأمورة بالعناية بنا هاهنا، ومسخرة لنا. والمسخر المأمور مخترَع من قبل غيره ضرورة[10].

ب – أن كل مخترَع فله مخترِع: وينتج عن هذين الأصلين أن للموجود فاعلا مخترعا له. ويمكن أن يتولد عن هذين الأصلين أدلة طبيعية كثيرة، تقدر بعدد الأشياء المخترعة؛ ولذلك كان واجبا على من أراد معرفة الله تعالى حق المعرفة أن يعرف جواهر الأشياء؛ ليقف على الاختراع الحقيقي في جميع الموجودات؛ لأن من لم يعرف حقيقة الشيء لم يعرف حقيقة الاختراع، وإلى هذا الإشارة بقول تعالى: {أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ}[11].

ثالثا: دليل العناية

لقد حدد ابن رشد طبيعة دليل العناية من خلال اعتبار جميع الموجودات تسير في اتجاه العناية بالإنسان، وهي موافقة لطبيعة وجوده الإنساني[12]، وقد قرر القرآن الكريم هذا الدليل في غير ما آية، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَادًا وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾[13]، وقال عز وجل: ﴿تَبَارَكَ الذِي جَعَلَ فِي السَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾[14] .

إن عناية الله تبارك وتعالى بخلقه مقصودة ماثلة في العالم كله، فإذا نظر الإنسان إلى ما في الكون من الشمس والقمر وسائر الكواكب والليل والنهار، وإذا تأمل في سبب الأمطار والمياه والرياح، وسبب عمارة أجزاء الأرض، ونظر في حكمة وجود الناس وسائر الكائنات من الحيوانات البرية، وكذلك الماء موافقا للحيوانات المائية، والهواء للحيوانات الطائرة، وأنه لو اختل شيء من هذا النظام لاختل وجود المخلوقات التي هاهنا. وإذا تأمل الإنسان ذلك كله عَلِم عِلمَ اليقين أنه ليس يمكن أن تكون هذه الموافقة التي في جميع أجزاء العالم للإنسان والحيوان والنبات بالاتفاق، بل ذلك من قاصد قصده، ومريد أراده، وهو الله سبحانه، وعلم يقينا أن العالم مصنوع مخلوق، ولا يمكن أن يوجد بهذا النظام والموافقة من غير صانع وخالق مدبر[15].

وينبني دليل العناية عند ابن رشد على أصلين هما:

الأصل الأول: أن جميع الموجودات موافقة لوجود الإنسان، فإذا نظرنا إلى أنواع الموجودات كالليل والنهار والشمس والقمر والفصول الأربعة والمكان الذي يعيش فيه وهو الأرض، وكثير من أنواع الحيوانات والنباتات وجدناها موافقة لوجود الإنسان وحياته ...، فمن أراد أن يعرف الله تعالى المعرفة التامة أن يفحص منافع الموجودات.

الأصل الثاني: أن موافقة الموجودات لوجود الإنسان وحياته ليست من قبل المصادفة، بل هي مقصودة لفاعل قاصد لذلك ومريد له[16].

هذا؛ ويرتقي ابن سينا ليستدل بدليل العناية على إثبات العلم الإلهي، وإثبات العلم متفرع على إثبات الوجود، يقول في هذا الصدد: "إن العناية هي كون الأول عالما بما عليه الوجود من نظام الخير، وعلة لذاته للخير والكمال حسب الإمكان، وراضيا به على أتم تأدية إلى النظام بحسب الإمكان، فهذا هو معنى العناية"[17]. وانطلاقا من هذا النص فإن مدلول العناية الإلهية عند ابن سينا هي علم الله الأزلي القديم السابق بترتب الموجودات على أحسن نظام، بدون أي اعتراض أو قصد أو غير ذلك، وهذه الإحاطة من أجل هذا النظام واجب عنه، وله علم به، حتى يكون الموجود وفق المعلوم.

رابعا: دليل الإتقان والتقدير

يعتبر دليل الإتقان والتقدير مِن الأدلة العقلية على وجود الله، وتتحصل حقيقة هذا الدليل في الاستدلال على ضرورة وجود الله تعالى بما في العالم من الإتقان والإحكام في تفاصيله الدقيقة المذهلة، إذ لا بد فيه من فاعل يتصف بالقدرة والحكمة وسعة العلم قال عز وجل: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الذِي أَتـْـقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾[18]. وقال عز وجل: ﴿الذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ﴾[19]. وقال عز وجل: ﴿الذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِنْ طِينٍ﴾[20] . فهذه الآيات وأمثالها تلفت نظر المستدل إلى دلالة المخلوقات على باريها من خلال ما يشاهد فيها من الانضباط والالتزام التام بنظام في غاية الدقة، ما كان له أن يوجد على هذه الحال دون مدبر، وفي هذا أعظم دليل على بطلان الدعوى القائلة بحدوث العالم عن طريق المصادفة.

ويعتبر دليل الإتقان من الأدلة اليقينية؛ لكونه مركب مِن الدلالات الحسية المباشرة الضرورية، ومِن المبادئ العقلية البديهية. ويشترك دليل الإتقان ودليل الاختراع في أن كلا منهما يستند في دلالته إلى آثار الله في الخلق، وفي أن كلا منهما مركب من دلالة الحس والعقل معا. كما أن الفرق بينهما؛ أن دليل الإتقان يستند إلى حالة الكون بعدَ وجوده، وهذا يدل على أن المخلوقات تدل على وجود الله مِن جهتين:

الجهة الأولى: إحداثها من العدم.

الجهة الثانية: إتقانها وإحكامها بعد الإيجاد والأحداث.

ويعد دليل الإتقان والإحكام من أكثر الأدلة المستعملة الدالة على ضرورة وجود الله؛ لكونه أقوى البراهين تأثيرا في نفوس الناس، يقول أنتوني فلو: "لا شك أن ما كشفه العلم الحديث من معلومات هائلة في مجال قوانين الطبيعة ونشأة الكون، وكذلك نشأة الحياة وتنوع الكائنات الحية، قد أمد هذا البرهان –دليل الإتقان–بالكثير مِن الأدلة التي أعانتني كثيرا في الوصول إلى هذا الاستنتاج يعني الإقرار بأن هناك إله"[21].

ويبنى دليل الإتقان عند المتكلمين على مقدمتين:

الأولى: الكون متقن ومحكم في خلقته.

الثانية: الإتقان والإحكام لا بد له من فاعل حكيم وعليم[22].

والمراد بالمقدمة الأولى أن الكون ركب بصورة معقدة جدا لا يمكن اختزالها في أسباب راجعة إلى الكون نفسه أو إلى الصدفة، بحيث أن أي زيادة فيها أو نقصان يؤدي إلى اختلافات كبيرة، ربما تؤول إلى فساد الكون كله. وهناك دلائل وشواهد على صحة هذه المقدمة ومنقسمة لنوعين أساسيين:

– النوع الأول: الدليل الحسي المباشر؛ وهو دليل كان معتمدا لدى المتقدمين قبل ظهور العلم التجريبي، ومن ذلك ما صرح به الخطابي بقوله: "إنك إذا تأملت هيئة هذا العالم بِبصرك، واعتبرتها بِفكرك، وجدته كالبيت المبني المعد فيه جميع ما يحتاج إليه ساكنه من آلة وعتاد، فالسماء مرفوعة كالسقف، والأرض ممدودة كالبساط، والنجوم منضودة كالمصابيح، والجواهر مخزونة كالذخائر، وضروب النبات مهيأة للمطاعم والملابس والمشارب، وصنوف الحيوان مسخرة للمراكب، مستعملة في المرافق، وفي هذا كله دلالة واضحة على أن العالم مخلوق"[23].

كما يعتمد ابن رشد على المسلك ذاته في إثبات الإحكام والإتقان في الكون فيقول: "وكذلك الأمر مع العالم كله، فإنه إذا نظر إلى ما فيه من شمس والقمر وسائر الكواكب وسائر الكائنات؛ من الحيوانات البرية، وكذلكَ الماء؛ موافقا للحيوانات المائية، والهواء؛ للحيوانات الطائرة، وأنه لو اختل شيء من هذه الحلقة لاختل وجود المخلوقات التي هنا، علم على القطع أنه ليس يمكن أن تكون هذه الموافقة التي في جميع أجزاء العالم للإنسان والحيوان والنبات بالاتفاق، بل ذلك من قاصد قصده ومريد أراده، وهو الله"[24].

النوع الثاني: الدليل العلمي التجريبي؛ وهو دليل يتماشى مع تقدم العلم، حيث اكتشف العلماء مع التطورات الحديثة أصنافا من الإتقان والإحكام بالكون، وأقر بذلك المؤمنون والملاحدة، يقول العالم الفيزيائي

بول ديفيز: "حتى العلماء الملحدون يدبجون قصائد المديح في ضخامته وعظمته وتناغمه وأناقته وعبقريته، ومن أولئك الذين توسعوا في شرح هذه المقدمة-العالم الفيزيائي ستيفن هوكنج"[25].

وتعتبر قضية الثوابت الكونية من أهم القضايا التي أبهرت العلماء بإتقانها العجيب؛ والتي مفادها أن الكون ضبط بقوانين دقيقة ثابتة صارمة، تشترك فيما بينها في تسيير مجريات الكون كلها؛ ليكون مناسبا للعيش والحياة فيه، وكدليل على هذا الإقرار فقد كتب العالم الأمريكي الشهير "كريس موريسون" كتابه "الإنسان لا يقوم وحده" وانطلق منه في إثبات وجود الله.

أما المقدمة الثانية؛ وهي أن هذا الإتقان والإحكام لا بد له من فاعل، فالمراد بها أن مشاهد الأحكام التي في الوجود يتعذر أن تقع بغير فاعل عالم مختار مريد حكيم قادر يقوم بتصميمها.

ويدل على صحة هذه المقدمة ضرورتان:

الأولى: الضرورة العقلية؛ ذلك أن الإحكام والإتقان هو فعل من الأفعال، والعقل الضروري يدل على أن الفعل لا بد له من فاعل.

الثانية: الضرورة الرياضية؛ ذلك أن الحسابات الرياضية تبطل جميع الاحتمالات الباطلة في خلق الخلق؛ كالحدوث بالصدفة المفاجئة أو التطور طويل الأمد[26].

المبحث الثاني: مسلك الفلسفة الإسلامية في إثبات وجود الله

لقد تعددت مسالك الفلسفة الإسلامية في إثباتها لوجود الله، فهذا ابن سينا يعتمد دليل الإمكان والوجوب: وهو دليل يتكون من مقدمات ثلاث؛ أما المقدمة الأولى: فمفادها؛ أن موجودات هذا العالم ممكنة الوجود، وهي ذات لا تقتضي الوجود؛ إذ لو كان واحد منها واجب الوجود لتم إثبات المطلوب. والمقدمة الثانية: فمفادها؛ أن كل ممكن الوجود فهو محتاج في وجوده إلى علة تمنحه الوجود. والمقدمة الثالثة القائلة: بأن استحالة الدور والتسلسل في العلل. والنتيجة: إن كل واحد من موجودات هذا العالم -الممكنة الوجود حسب الفرض ــ يحتاج إلى العلة الفاعلية، ويستحيل أن تمتد سلسلة العلل إلى ما لا نهاية، ولا يمكن أيضا الدور، إذن؛ لا بد أن تنتهي سلسلة العلل من ناحية البدء إلى علة ليست محتاجة إلى علة، وهي التي نسميها واجب الوجود[27].

وقد لجأ الفارابي أيضا إلى تقسيم العالم إلى واجب وممكن، ثم الاستدلال بالممكن على الواجب، من

حيث حدوثه بعد أن لم يكن، ومن حيث ثباته على الإمكان، حيث قال: "ما حقه في نفسه الإمكان فليس يصير موجودا من ذاته، فإنه ليس وجوده من ذاته أولى من عدمه من حيث هو ممكن، فإن صار أحدهما أولى فلحضور شيء أو غيبته، فوجود الممكن هو من غيره"[28].

ثم جاء ابن رشد واعتمد دليل المحرك لإثبات وجود الله، ويقوم هذا الدليل على أن الموجود مفتقر إلى شيء يحركه من خارجه، وأن المتحركات لا بد أن تنتهي إلى المحرك الأول، وهو الله، يقول في ذلك: "متى أنزلنا هذا المحرك الأقصى للعالم، يحرك تارة ولا يحرك أخرى، لزم ضرورة أن يكون هناك محرك أقدم منه، فلا يكون المحرك الأول، فإن فرضنا أيضا هذا الثاني يحرك تارة ولا يحرك أخرى؛ لزم فيه ما لزم في الأول، وحينها أن يمر ذلك إلى غير نهاية، أو ننزل أن هنا متحركا لا يتحرك أصلا، ولا من شأنه أن يتحرك لا بالذات ولا بالعرض"[29].

ويمثل ابن رشد لدليل المحرك بالملك الآمر لمن هم دونه من نوابه في مملكته، والواحد من النواب يأمر من دونه، والأوامر ترجع إلى الآمر الأول، وفي ذلك يقول: "إن الآمر بهذه الحركات هو المبدأ الأول وهو الله سبحانه وتعالى، وأنه أمر سائر المبادئ أن تأمر سائر الأفلاك بسائر الحركات، وأن بهذا الأمر قامت السماوات والأرض...، والآمر الأول لا يمكن أن يكون جسما؛ لأنه لو كان كذلك لكان واحدا من الأجسام المأمورة"[30].

وقد استدل ابن رشد على هذا الدليل بقوله تعالى على لسان الخليل إبراهيم عليه السلام: {وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين، فلما جن عليه الليل رآى كوكبا، قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الأفلين، فلما رآى القمر بازغا قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين، فلما رآى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر، فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون}[31]. ووجه استدلال ابن رشد بهذه الآيات على دليل المحرك والمتحرك أن إبراهيم عليه السلام احتج على قومه بعدم استحقاق هذه المخلوقات للعبادة، مفسرا الأفول بالحركة، وأن الحركة لابد لها من محرك، لأن الموجودات يستحيل أن تتحرك من ذاتها[32].

بينما ذهب ابن الطفيل إلى صحة الاستدلال بدليل المحرك والمتحرك، وانتهى به البحث إلى وجود فاعل في الكون، وفي ذلك يقول: "ولم يضر حي بن يقظان في ذلك تشككه في قدم العالم أو حدوث، ويصح له على الوجهين جميعا وجود فاعل غير جسم، ولا متصل بجسم، ولا منفصل عنه، ولا داخل فيه، ولا خارج عنه، والاتصال والانفصال والدخول والخروج من صفات الأجسام، وهو منزه عنها"[33]. فيرى ابن الطفيل أن حركة العالم قديمة لا نهاية لها، ومن ثم؛ فلا بداية زمنية للحركة؛ لأن الحركة لا تسبق بسكون، وبناء على القول

بقدم العالم فإن الانتقال يكون من مرحلة القوة إلى مرحلة الفعل، وهذا الانتقال في هذه الحالة يعد حركة، ومن ثم؛ يصل ابن الطفيل إلى تقرير هذه المقدمات وهي أن العالم متحرك والمتحرك لا بد له من محرك[34].

كما اعتمد فلاسفة الإسلام مسلك العناية والغاية لإثبات وجود الله، متفادين بذلك ما في مذهب أرسطوا من نقص، والذي يتمثل في الفجوة بين الله والعالم، فأراد المسلمون أن يثبتوا وجود علاقة بين الله والعالم بدليل تلك الغاية والعناية[35]. ويعتبر الكندي رائد الآخذين بهذا الدليل، مستبعدا بذلك دليل المصادفة والعبث، وفي ذلك يقول: "لقد أوضح الله لك الخفيات لأوضح الدلالة على تدبير مدبر أول، أعني مدبرا لكل مدبر، وفاعلا لكل فاعل، ومكونا لكل مكون، وأولا لكل أول، وعلة لكل علة...، فإن في نظم هذا العالم وتدبير هو ترتيبه، وفعل بعضه في بعض، وانقياد بعضه لبعض، وتسخير بعضه لبعض، وإتقان هيئته على الأمر الأصلح في أوانه، وفساد الفاسد وزوال الزائل لأعظم دلالة على أتقن تدبير، ومع التدبير مدبر، وعلى أحكم حكمة، ومع الحكمة حكيم، لأن هذه جميعا من المضاف"[36].

المبحث الثالث: مسلك الفلسفة الغربية في إثبات وجود الله

لقد شكلت المسألة الميتافيزيقية دوما جوهر الفلسفة؛ لكونها -كانت وما تزال-تبحث عن الإله الحق، فمنهم من اهتدى إليه، ومنهم من عجز عقله عن تصوره، ومنهم من قاده العجز إلى الضلال[37]. ولقد خاضت الفلسفة الغربية غمار البحث في أصل الوجود، ومعنى الإله، فهذا (انكسيمندر)[38] من كبار فلاسفة اليونان الأقدمين كان يرى بأن أصل الكائنات (مادة لا شكل لها ولا نهاية ولا حدود)[39]، ثم هداه تفكيره إلى صفة تشمل العالم بما فيه من مادة وغير مادة، وهي صفة (العدد le nombre)، وفي ذلك يقول: "فنحن نستطيع أن نتصور هذه الأشياء بلا ألوان، ولا طعوم، ولا روائح، ولا أحجام، ولكننا لا نستطيع أن نتصور شيئا غير قابل للعد. فالعدد إذا هو الصفة الوحيدة المشتركة التي يتصف بها كل ما في الكون، وهو وحده الذي يصلح أن يكون أصلا له، ولما كان كل ما في الكون عبارة عن عدد متكرر، والأعداد عبارة عن تكرار (الواحد)، فالواحد إذن؛ هو أصل الكون وعلته وحقيقته"[40]. وقال أيضا: "إن الناس هم اللذين اخترعوا الآلهة وتصوروها بمثل هيئاتهم، ولو كانت الثيران أو الأسود أو الجياد تعرف التصوير لرسمت لنا الإله على أشكالها، كلا ثم كلا، إنه لا يوجد غير إله واحد، هو أرفع الموجودات، ليس مركبا على هيئتنا، ولا يفكر مثل تفكيرنا بل كله بصر، وكله سمع، وكله فكر"[41].

-ثم يأتي (بارمنيدس)[42]، الذي يرى أن الماء والهواء والعدد لا يصلحون أن يكونوا أصلا للأشياء؛ لأن هذه الأشياء كلها متغيرة، ونحن لا نعرف عنها إلا صفاتها الظاهرة، وكل هذه الصفات يعتريها التغيير والفناء إلا صفة واحدة وهي صفة (الوجود l'etre)، فهذا الوجود الدائم هو الذي يصح أن يتخذ أصلا للكائنات، ثم يصفه لنا بأنه وجود أزلي، لا يتغير ولا يفنى، وليس له ماض ولا مستقبل، بل هو يستوعب الأزل والأبد، كما أنه لا يتحرك ولا يتجزأ؛ لأن الحركة صورة للتحول، وهو كامل وليس وراءه وجود آخر[43].

ثم جاء بعده (اكزنوفنس)[44]، حيث قال في أصل الوجود كلمته التي قفز بها في تاريخ الميتافيزيقية ألفي سنة إلى الأمام، وذلك بقوله: "ما من إنسان يستطيع أن يعرف الله معرفة دقيقة، حتى لو شاءت المصادفة لإنسان أن يقول في وصف الله الحق كل الحق، فهو نفسه لن يعرف أنه يقول الحق"[45].

ثم جاء "أناكساغورس"[46] الذي فند آراء ديموقريطس في مقولته (بالضرورة العمياء) وسفهها، بقوله: "من المستحيل على قوة عمياء أن تبدع هذا الجمال، وهذا النظام اللذين يتجليين في هذا العالم؛ لأن القوة عمياء لا تنتج إلا الفوضى، فالذي يحرك المادة هو العقل"[47].

والظاهر من كلام "أناكساغورس" أنه كان يحوم حول الإيمان، وذلك حين أدرك بعقله السليم أن هذا النظام المحكم لا يمكن أن يصدر إلا عن عقل حكيم، ولذلك عد (انكساغورس) أول من فتح باب الفلسفة الروحية، وأتى برأي يحوم حول الحق، وهذا ما جعل أرسطو يقول عنه أنه (الوحيد الذي احتفظ برشده أمام هذيان أسلافه)[48].

كما يعتبر أفلاطون أول الفلاسفة القائلين بوجود الله، وبأنه الخالق للعالم والمدبر لأمره، ويقيم على ذلك براهين أهمها "برهان النظام"، وفي ذلك يقول: "إن العالم آية في الجمال والنظام، ولا يمكن أبدا أن يكون هذا نتيجة على اتفاقية، بل هو صنع عاقل، كامل، توخى الخير، ورتب كل شيء عن قصد وحكمة[49].

ثم جاء بعده أرسطوا الذي صعب عليه أن يتصور خلق المادة من العدم، فحار في تعريفها، وانتهى به الأمر إلى أن قال بأنها: "عبارة عن (قابلية التلقي) فكأنه قال إنها عبارة عن العدم.

أما الفلسفة الحديثة فنجد على سبيل المثال ديكارت، حيث اعتمد مجموعة من الأدلة لإثبات وجود الله، من ذلك:

– أولا: الدليل الأنطولوجي: ويعرف أيضا بالبرهان السببي، ويعتمد على مبدأ أنه: إذا وجد أي شيء فلا بد من وجود شيء آخر هو سببه بصورة مباشرة أو غير مباشرة، وقد خلص ديكارت –باعتماده على هذا الدليل–إلى فكرة الكائن الكامل اللامتناهي والتي لا يمكن أن يكون هو سببها؛ لأنه شاك فهو ناقص، إذ أن الشك ينطوي على النقص، ولما كان ما هو ناقص لا يمكن أن يكون سببا لما هو كامل فمن المحال أن نحصل على فكرة الكمال اللامتناهي من تراكم أفكار أشياء متناهي؛ لأن المتناهيات لا يمكن أن تؤدي إلى لا متناهي. كما أنه لما كان الوجود الموضوعي الصوري للفكرة لا يمكن أن ينشأ من قبل كائن موجود بالقوة، بل من قبل كائن له وجود صوري، فإنه ينبغي أن نستنتج أن سبب فكرة الكمال اللامتناهي هو كائن كامل لا متناهي بالفعل وهو الله. فالله باعتباره الكائن الكامل اللامتناهي موجود ضرورة[50].

– ثانيا: الدليل الشخصي: ومؤداه؛ أنه موجود غير تام الكمال، بل ناقص، وهو بالتالي: ليس الكائن الوحيد في الوجود، إذ لا بد لوجوده من علة، والعلة لابد أن تكون مكافئة على الأقل للمعلول إن لم تكن أكثر منه فضلا وكيفا، وديكارت لو كان علة وجود نفسه لكان يستطيع أن يحصل من نفسه لنفسه على كل ما يعرف أنه ينقصه من الكمالات؛ لأن الكمال ليس إلا محمولا من محمولات الوجود، والذي يستطيع أن يهب الوجود يستطيع أن يهب الكمال، وإذن؛ تكون علة وجوده ذاتا لها كل ما يتصور من الكمالات وهذه هي ذات الله تعالى[51].

–ثالثا: الدليل الهندسي: ومضمونه أن المثلث تكون زواياه الداخلية مساوية لقائمتين (180 درجة)، كذلك؛ فإن الله باعتباره كائنا كاملا متناهيا تستلزم وجوده بالضرورة. وعليه؛ فإذا كان من التناقض أن نقول أن الزوايا الداخلية للمثلث لا تساوي قائمتين، فمن التناقض كذلك أن نقول أن الله غير موجود؛ لأن الوجود متضمن في ماهية الله على نحو ما تكون مساواة الزوايا الداخلية للمثلث لقائمتين متضمنة في تعريف المثلث[52].

في حين نجد كانط معتمدا على الدليل الأخلاقي في إثبات وجود الله: إذ يرى استحالة البرهنة نظريا على وجود الله، ولكن يمكن البرهنة على وجوده من ناحية أخلاقية، حيث يرى أن للإنسان شعور فطري بالعدالة، والعدالة تقتضي أن يثاب المحسن ويعاقب المسيْ، ولكن في الحياة نجد أن هناك محسن لا يثاب ومسيْ لا يعاقب، لذا؛ لا بد من وجود يوم آخر يعاقب فيه هذا المسيء، ويثاب فيه هذا المحسن، ولا بد من وجود إله يوجد هذا اليوم، ويحاسب فيه الناس ويحقق العدالة[53].

وهكذا؛ فقد أنتج الفكر الغربي كما هائلا من النظريات الفلسفية التي تضل إن كانت في معزل عن الدين.

خاتمة

من خلال ما سبق يتضح أن تصورات الفلاسفة في إثبات وجود الله تبطل حالة استقلال الفلسفة عن الوحي، ولهذا الملحظ صحت المقارنة في هذا البحث الذي من خلاله تتضح الفروق بين منهج الوحي في إثبات وجود الله باعتماد آلية النظر، المتضمنة لدليل الحدوث والعناية والاختراع والإتقان، وكلها أدلة قررها القرآن الكريم ونظر لها المتكلمون فسلمت أنظارهم في الجملة لعصمة منزعها. كما تتجلى أهم الفروق بين المنهج القرآني والمسلك الفلسفي في إثبات وجود الله أن القرآن خاطب عامة العقول بأدلة دامغة تثبت من خلالها الإله الحق، في حين نجد الفلسفة لم تخاطب إلا خواص الفلاسفة برؤى متعددة، وميتافيزيقا مغيبة عن تصورات العوام، فانحصر تصور الإله في المستوى العميق الذي اعتبره الوحي تكلفا وتنطعا.

الحواشي

[1] - جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ابن جرير الطبري، تحقيق عبد الله عبد المحسن التركي، دار هجرة، الطبعة الأولى، 2008م، ج3ص245.

[2] – مفاتيح الغيب، الفخر الرازي، دار الفكر، الطبعة الثانية، 1401ه/1981م، ج6ص 298.

[3] – المصدر نفسه، ج6ص299.

[4] – سورة الذاريات، آية 21.

[5] – سورة آل عمران، آية 190.

[6] – رسالة إلى أهل الثغر، أبو الحسن الأشعري، تحقيق ودراسة عبد الله شاكر محمد الجنيدي، مكتبة العلوم والحكم، الطبعة الثانية، السعودية، 2002م، ص141-144. العقل والنقل عند ابن رشد، محمد أمان بن علي الجامي، الجامعة الإسلامية، الطبعة الثالثة، 1404، ج1ص 83.

[7] – التأصيل القرآني للعقيدة عند الإمام من خلال كتاب "رسالة إلى أهل الثغر" عبد الحميد مومن، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، 2016، ص112.

[8] – درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية، تحقيق محمد رشاد سالم، جامعة ابن سعود، الطبعة الثانية، السعودية، 1411ه/1991م، ج9 ص172.

[9] – سورة الحج الآية 71.

[10] – الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة، لابن رشد، محمد عابد جابري، ص: 118.

11 – الأعراف الآية 185.

[12] – الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة لابن رشد، ص: 119.

13 – سورة النبأ، آية 6-8.

14 – سورة الفرقان، آية 61.

[15] – الجانب الإلهي عند ابن سينا، د. سالم مرشان، دار قتيبة، بيروت، الطبعة الأولى، 1992م، ص271.

[16] – الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة، لابن رشد، ص: 118.

17 – الجانب الإلهي عند ابن سينا، د. سالم مرشان، ص271.

18 – النمل، آية 88.

19 – الملك، آية 3.

[20] – السجدة، آية 7.

21 – الكون بين التوحيد والإلحاد، نور الدين أبو لحية، دار الأنوار للنشر والتوزيع، 1439ه، ص166.

[22] – حقيقة المثل الأعلى وآثاره، عيسى بن عبد الله السعدي الغامدي، دار ابن الجوزي، الطبعة الأولى، السعودية، 1467ه، ص56.

[23] – بيان تلبيس الجهمية، ابن تيمية، ج1ص509.

[24] – الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة، ابن رشد، ص 118.

25 – https://www.issr.org.uk/fellows/user/121

26 – منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد عند أهل السنة والجماعة، عثمان بن علي حسن، الطبعة 5، الرياض، 1427ه/2006م، ص67.

27 – الإشارات والتنبيهات، ابن سينا، تحقيق سليمان دنيا، مؤسسة النعمان، بيروت، الطبعة الثانية، 1993م، ص267.

28 – آراء أهل المدينة الفاضلة ومضاداتها، أبو نصر الفارابي، تحقيق علي أبو محلم، دار الهلال، الطبعة الثانية، 2002م، ص78.

29 تهافت التهافت، ابن رشد، أبو الوليد بن رشد، تحقيق سليمان دنيا، دار المعارف، الطبعة الأولى، 1964ه، ص97.

30 – المصدر نفسه، ص98.

31 – سورة الأنعام، آية 78.

32 – تهافت التهافت، ج1ص803.

33 – ابن سينا وابن الطفيل والسهروردي، حي بن يقظان، تحقيق وتعليق أحمد أمين، أقلام عربية، الطبعة الأولى، 2019.

34 – الميتافيزيقا في فلسفة ابن الطفيل، عاطف العراقي، دار المعارف، الطبعة الخامسة، 1992، ص111.

35 –دراسات في الفلسفة المعاصرة، زكريا إبراهيم، مكتبة مصر، الطبعة الأولى، ص:78

36 – رسائل الكندي الفلسفية، حققها وأخرجها محمد عبد الهادي، دار الفكر العربي، الطبعة الأولى، 1950م، ص511.

37 – قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن، نديم الجسر، مطابع المكتب الإسلامي، الطبعة الثالثة، بيروت، 1969م، ص 29.

38 – من فلاسفة ما قبل (سقراط)، عاش في ميليتوس، إحدى مدن أيونيا، ينتمي إلى المدرسة الميليسية، أخذ الفلسفة على أستاذه (طاليس) . وخلّفه وأصبح الأستاذ الثاني لهذه المدرسة، ويعتبر أول فيلسوف يدوّن فلسفته، وهو أول من استعمل كلمة اللانهائي، حيث يرى أن أصل الأشياء كانت كتلة لانهائية وغير محدودة، و لم تكن تخضع للتقادم أو التلاشي والتي حوت عناصر أولية اشتُق منها كل شيء نراه الآن، كما يرى بتعددية الأكوان، توفي سنة 546 قبل الميلاد، Анаксимандр —: Brockhaus and Efron Encyclopedic Dictionary. Volume Ia, 1890

39 – قصة الايمان قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن، ص30.

40 – قصة الإيمان، ص45.

41 – قصة الإيمان ، ص46.

42 – بارمنيدس : فيلسوف يوناني ولد في القرن الخامس قبل الميلاد في إيليا، من فلاسفة عصر ما قبل سقراط، وقد ترك قصيدة "في الطبيعة" التي يذكر فيها ما يعتقد أنه الحقيقة المطلقة على نحو دوجماطيقي يقيني، كان يرى بارمينيدس أن كل ما هو موجود قد وجد منذ الأبد. فلا يولد شيء من لا شيء، وما ليس موجوداً لا يمكن أن يصبح شيئا، Hackett Publishing Company —: Curd, Patricia (2011). A Presocratics Reader. Selected Fragments and Testimonia (2nd ed. P 53

43 – قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن، نديم الجسر، ص48.

44 – اكزنوفنس : فيلسوف يوناني، شاعر، وناقد اجتماعي وديني، يعتبر أول من صرح بعقيدته في الألوهية دون غموض أو ترميز، والممهد لعلم اللاهوت، فضلا عن أنه أول من نادى بالتوحيد الصريح من فلاسفة اليونان، رغم أن سبقه فلاسفة بالإشارة إلى ذلك مثل فيثاغورس...، كذلك يذهب أغلب مؤرخي الفلسفة إلى أنه ممهد التفكير الميتافيزيقي، والنظر إلى ما وراء المادة المحسوسة، وترك القول بالعناصر الطبيعة كمبدأ أول للكون، تاريخ الفكر الغربي، من اليونانية القديمة إلى القرن العشرين، غنار سكيربك، نلز غيلجي، ترجمة حيدر إسماعيل، المنظمة العربية للترجمة، الطبعة الأولى، لبنان، 2012م، ص235.

45 – الملل والنحل، الشهرستاني، مؤسسة الحلبي، الطبعة الأولى، بيروت، 1999م، ص417.

46 – ولد أناكسوغوراس في كلازومينياي قرب أزمير الحديثة، تركيا، ودرس في أثينا لمدة نحو ثلاثين عاما، سجن لقوله بأن الشمس هي حجر ساخن، والقمر مصنوع من الأرض وليست آلهة، ويقول إن الأرض مسطحة، وأن الذرات لا نهائية العدد وغير متناهية الصغر، توفي 500 قبل الميلاد، تاريخ الفكر الغربي من اليونانية القديمة إلى القرن العشرين، غنار سكيربك، نلز غيلجي، ص265.

47 – كتاب قصة الايمان، ص 36.

48 – للكون إله، د. صبري الدمرداش، الكويت، مكتبة المنار، ط2، 2006، ص:621-628.

49 – كتاب قصة الايمان، ص 40.

50 – الملل والنحل، الشهرستاني، ص186.

51 – تاريخ الفلسفة اليونانية، يوسف كرم، مؤسسة هنداوي، الطبعة الأولى، القاهرة، 2012م، ص44.

52 – تاريخ الفلسفة اليونانية، يوسف كرم،، ص46.

53 – الدين في حدود العقل، إيمانيل كانط، ترجمة فتحي المسكيني، مطبعة جداول، الطبعة الأولى، لبنان، ص231.